شهادة محبة ووفاء

بقلم: البروفيسور امحمد بن محمد مالكي

أستاذ القانون العام بكلية الحقوق وعميد سابق بها

جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان

لم أكن أتوقع أن أكتُبَ شهادةَ محبّة ووفاء في حقّ صديق ليس ككل الأصدقاء، غادرنا إلى دار البقاء في عزِّ نُضجه وعُنفوان عطائه...فقد حصل ما حصل، وتلك إرادة الله ومشيئته في خلقه، وليس لعباده المؤمنين سوى الرضا والقبول، والحمد والشكر من قبل ومن بعد...هكذا نأتي إلى الدنيا...وهكذا نرحل عنها حين يصل وقتُ الرحيل.

I

في صبيحة ذلك السبت 22 يوليو 2017 غادرنا سي "بوعلام"، كما دأبتُ على مناداته منذ أن تشرّفت بمعرفته لما يقرب الثلاثين سنة. وحين زرته في مستشفى جامعة السلطان قابوس قبل أسبوع من وفاته، وجلست بجواره، كان منشرحا رغم ألمه، وكان بشوشاً كعادته، وهو مُحاط بأسرته، وكان مطمئنا ومؤمناً بقدره...نطق ببضع الكلمات المبحوحة، وتوقف لأن الكلام لم يطاوعه، فأمسكت بيده وودّعته على أمل رؤيته من جديد، وأعترف أنني وأنا أسير في ردهات المستشفى كالتائه في طريقه، لم أتمالك نفسي، فانهمرت دموعي من حيث لا أشعر، والواقع كنت دائما عاجزاً عن التحكم في عاطفتي كلما زرته، أو التقيت به لمرات محدودة.

يُعرَفُ في آداب المُصاحبة أن الصديق تختارُه بوعي وإرادة واقتناع، خلافاً للأخ الذي تقبل به بسبب علاقة الدم، ورابطة الانتساب إلى الأسرة أو العائلة، ومن هنا شاع قول الناس: "رُبَّ أخ لم تلده لك أمك"... فالفقيد "بوعلام" كان من هذه الطينة، واجتمعَت فيه كل مناقب الصحبة والصداقة وخصالها. وأذكر حين وصلت بلاد عُمان قادماً من المغرب، أنا الذي لم أفكر قط في الهجرة، والتقيت به صدفة في المعرض الدولي للكتاب أواخر شهر فبراير من عام 2014، وسألته بعد سلام وعناق حميمين: ما ذا تفعل هنا؟ أجئت للمشاركة

في فعاليات المعرض؟ فكان جوابه أنا أستاذ متعاقد في قسم التاريخ في كلية الآداب في جامعة السلطان قابوس منذ فصل الخريف الماضي...أقول حين سمعت هذا الجواب: أحسست أن بابَ الفرج فُتح لي من حيث لا أدري، أنا الذي كنت قد وصلت على التوِّ، وحُرقة فراق البلد والأهل والديار تضغط على نفسي، وهذا ما حصل فعلاً، فقد وجدت في الفقيد خير رفيق، وأكرم عضُد، وأوفى مساعد ومساند.

مناقب سي "بوعلام" كتابٌ مفتوح، لم أكن احتاج لسيرة ذاتية كي أدوّن من خلالها هذه الشهادة القليلة والمتواضعة في حقه، بل لمستُ، وتعايشت، وعشت مع مناقبه وخصاله، بالاحتكاك، والصحبة، والحوار وتبادل الرأي، والاختلاف أحياناً، وطيب الاحترام ونُبل العواطف المشتركة...وأوثق ما شدّني إليه التلازمُ الصادق والأمين بين القول والفعل: يفعل ما يقول، ويقول ما يريد فعلَه، وتلك لعمري خِصلةُ المؤمن الصادق، وميزةُ الإنسان القويم المستقيم.

II

يصعُب علي الإسهاب في تفصيل مناقب الفقيد وخِصالِه، وهي كثيرة ومتنوعة، قصدي من هذه الشهادة التعبير، بما يتطلب المقامُ من اختصار، عما شعرتُ به، ولا زلت أشعر به، وستظل ذكراهُ حيةً في قلبي، وأنا أتلقى، في صبيحة ذلك السبت من أواخر شهر يوليو 2017، نبأوفاة صديق وزميل عزيز، لمستُ في صحبته كل خصال الصدق والوفاء وعاينت في زمالته كل مقومات الاقتدار، والكفاءة، والجدارة.

كتب يوماً عالم الاجتماع الفرنسي، وأحد الباحثين الصادقين في الإسلام وتاريخ مجتمعاته "جاك بيركJacques Berque" في سياق حديثه عن شخصية المجاهد المغربي "عبد الكريم الخطابي" يقول: "ليست العبرة في ما فعل الإنسان وأنجز، ولكن العبرة كل العبرة في ما تركَ ليُفعَل".. والحقيقة أنّ لقوله درجةً من الصِّدقِية والرجاحةِ، فكلّ صالحاتنا من الطيبات، ولكن أطيبها تلك التي تستمر بعدنا مُرشدةً وموجهةً للناس، ومنيرة لهم الطريق.

فالفقيد سي "بوعلام"، وبعد تجربة جامعية فاقت الثلاثة عقود في بلده، وخارجه، وبِسِماتِ ومتطلبات الأكاديمي المتميز، ترك رصيداً معرفيا لجمهور واسع من طلابه، هم بدون

شك في مواقع متميزة في أكثر من وظيفة ومسؤولية. ولأنه لم يكن ملقّناً المعارف فحسب، بل كان أيضا، كما عرفته مربّياً، فقد ساهم في بثّ قيم العلم النافع، والمعرفة الراشدة، والأخلاق السامية. ولا يخالجني شكّ في أن عموم هذا الجمهور، الذي يُعدّ بالآلاف، يستحضر روحه، ويترحم على أخلاقه، ويهتدي بمناقبه...وكما يُقال: "لا يُعدّ ميتا من ترك خلفاً، ومن ترك كتابة أو كتبا، أي معرفة"، وسي "بوعلام" والحمد لله، ترك الاثنين معا.

سمحت لي السنوات الثلاث التي قضيناها سويا في جامعة السلطان قابوس، أن أعاين عن قرب جملة من هذه الخصال في شخص فقيدنا. لمست فيه درجة حرصه على المهنية في أدق تفاصيلها، وبالغ احترامه للواجب مهما كلفه من أتعاب، وحتى حين كنا نختلي بعيدين عن الحرم الجامعي، ونتبادل همومنا حول متاعب المهنة والاغتراب والبعد عن الأوطان. كانت معنوياته مرتفعه، وروحه عالية، وكانت لديه لازِمة لا تفارقه ونحن نعيش حميمية الحديث عن مواجعنا، مفادها "أننا في بلد شقيق، ويجب أن نعطي صورة مشرفة عن أوطاننا"...كان سخاء الفقيد غير محدود، واستعداده للتضحية لا يعرف الكلل، والأكثر من كل هذا كان محباً لعُمان وجامعتها، وفي الآن معا يعيش وطنه في قلبه ووجدانه باستمرار... وفي لحظات الضيق، وهي قليلة، كان يستحضر جمال لؤلؤة المتوسط وهران، وشموخ ربوع الجزائر... وكأستاذ للتاريخ الحديث والمعاصر، كان مُدركا أهمية بلده، ومستوعبا حجم التطلعات التي تخترق نسيج مجتمعه، والأدوار المطلوبة من الجزائر، التي كتبت جزءا يسيراً من تاريخها بدماء الشهداء، وتضحيات الأبرار من أبنائها.

يلمسُ كل من احتك بالفقيد سي "بوعلام" أو رافقه لوقت قصير ومحدود، صِدقَ وطنيته، وصفاء اعتزازه ببلده...ولأننا من جيل فتح أعينه على بداية جلاء الاستعمار واسترداد السيادة الوطنية، وتفتَّقَ وعيُه مع العقدين الأولين من الشروع في إعادة بناء الدولة الوطنية، فقد تشبعنا بقيم الوطنية، والولاء للبلاد، والإخلاص في الذود عن رفعتها واستمرارها شامخة، وهكذا كان الفقيد في حلّه وترحاله، مُعرّفاً مُقنعاً بتاريخ الجزائر ورجالاتها، ومُدافعا عن المكانة المستحقة لبلده في محيطها الإقليمي والدولي.

III

يتكامل في شخصية الفقيد الجانب الإنساني والاجتماعي مع البُعد العلمي والأكاديمي. فقد كان باحثا مرموقا في تخصصه، وظل طيلة مسيرته الجامعية نموذجاً للأستاذ الناجح، بغنى علمه، وتواضع خُلقه وسلوكه. ولعل أبرز ما لمسته في شخصيته، وأكّده طلابُه، وهم بالآلاف، قدرتَه على الجمع في بوتقة واحدة بين العلم النافع والخلق الحسن. ففي مجال التعليم والتلقين كان سي "بوعلام" أستاذا قديرا ومقتدراً، يتواصل مع طلابه بالسلاسة المطلوبة، والوضوح والعمق المطلوبين. ولأنه مؤرخ بامتياز فقد ظل مُدركا أهمية انفتاح العلوم على بعضها البعض، وإلزامية وجود علاقات بينية بينها، وضرورة تجسير المعرفة بين حقول العلم ومجالاته. لذلك، استمر الفقيد حريصاً على مجال تخصصه، أي التاريخ الحديث والمعاصر، وفي الآنِ معاً مستثمرا الإمكانيات المعرفية التي تُتيحها العلاقات الأفقية بين العلوم، وخاصة العلوم الاجتماعية والإنسانية.

لم تكن هذه الميزة الاستراتيجية في الشخصية العلمية للفقيد صدفة، بل أسس لها لعقود من العمل المستمر والدؤوب، والصبر غير المتناهي. كان سي "بوعلام" مُجيداً لثلاث لغات (العربية . الفرنسية . والإنجليزية)، نُطقا وكتابة. فعلاوة على دراسته في بلده الأم الجزائر، تابع مشواره العلمي في فرنسا وبريطانيا، ومنهما صقلَ لسانَه وعدّد لغاته، وفيهما أدرك معنى تكامل العلوم وتلازمها، ومن أرضهما أفهم كيف يجب أن تكون أستاذاً باحثا وفي الآن معا مربياً تربويا. لم يكن، تغمده الله برحمته، يعرف التهاون أو الكسل طريقاً إلى حبه للعمل الأكاديمي والاستماتة في إنجازه... وحتى حين كان يشعر بالإجهاد أو العياء، كان يقوي عزيمته بالصبر، وقوة الشكيمة. ولذلك، أينما وُضع، وفي أية مسؤولية أنيطت به، كان يُبدع أكثر من مستطاعه، وكان الظفر بالفوز والريادة من نصيبه...ففي إحدى الأيام، وتحت ضغط العمل الشاق والمُضني الذي كنا نشعر به، اشتكيت إليه، وأفرغت ما في قلبي من ضيق وعناء، عسى أن ينير إلي الطريق، فكان جوابه كعادته: "ليس من حقنا التوقف في وسط الطريق...علينا الاستمرار في السير ومغالبة الصعاب"... هكذا كان يفكر سي "بوعلام"، وهكذا كانت إرادته على الدوام...وأستحضر بكثير من الإكبار والتقدير الخدمات العلمية الجليلة التي قدّمها لقسم التاريخ في كلية الآداب والعلوم الاجتماعية في جامعة السلطان

قابوس، والتي يشهد بها طلابه بكثير من الاعتزاز، وعميق الأسى والحزن على فقدانه. فقد ساهم إلى جانب زملائه في تطوير قسم الدراسات العليا على أسس علمية وأكاديمية جديدة، رفعت من قيمة المقاربات الجديدة والمناهج الأصيلة، وأولت بالغ الأهمية لإعمال التفكير النقدي واستثمار ملكات العقل...كما كان له دور بارز في تطوير مجلة كلية الآداب، حين تحمل مسؤولية إدارتها، واشتغل بتعاون تام مع زملائه لإعلاء مكانة القسم (شعبة التاريخ) وتقويم أداء أعضائها، وبالروح نفسها كانت له مساهمات مُقدّرة في عموم اللجان على صعيد الجامعة، ولاسيما لجنة الترقيات الأكاديمية.

هذه شذرات قليلة وبسيطة من سيرة رجل جمعتني به صداقة طويلة، مُفعمة بالمحبة الصادقة، والمودة والتقدير...وبقدر ما تشرفت برفقته العلمية والإنسانية لعقود، بالقدر نفسه وأكثر شعرت بفقدانه أن جزءاً مني ذهب معه...فذلك قضاء الله، والموت حقّ علينا...تغمده الله برحمته، وألهم ذويه الصبر والسلوان، والخير والبركة في نجليه، وأسرته الصغيرة والكبيرة، وآلاف الطلاب الذين أحبّوه وقدروا خصاله، وفي الأصدقاء، وهم كثر، الذين دأبوا على رؤية الفقيد بشوشاً، مبتسماً، وميالا لما فيه خير الناس وصالحهم.